تاريخ التراث الطبي الإسلامي بالمغرب

عبد العزيز بنعبد الله

ان القرن الرابع الهجرى يعد من اتصع القرون فى اسبانيا العربية سواء من حيث دراسة الفنون ام من حيث المؤسسات والمخترعات العلمية . ففى هذا القرن برز ابن جلجل كأعظم طبيب طبائعى فى عصره حيث عرب مفردات (ديستوريدس) وزاد عليها الادوية المعروفة عند العرب والتى جهلها ديسقوريدس(1) وقد كتب ابن جلجل ايضا تاريخا للاطباء والحكماء الذين ظهروا قبله فى الاندلس .

والوليد المدحجى الطبيب قد دخل الاندلس مع عبد الرحمن بن معاوية وكان طبيبه اخذ عنه ابنه ابراهيم واسحاق بن عمران هو الذى ادخل الطب الى المغرب وكذلك ابن الجزار صاحب زاد المسافر وقوت الحاضر وهو احمد بن ابراهيم بن ابى خالد المتوفى عام 395 هـ (1004 م) (2) .

ومما يدل على اهمية اطباء الاندلس فى القرن الرابع ان محمد بن عبدون القرطبى دخل مصر والبصرة وعنى بعلم الطب ودبر مارستان مصر ثم رجع الى الاندلس سنة 360 هـ وقد ذكر صاعد « انه تمهر فى الطب ونبغ فيه واحكم كثيرا من اصوله ولم يكن يلحقه احد بقرطبة فى صناعة الطب ولا يجاريه فى ضبطها وحسن دريته فيها واحكامه لغوامضها » (النفح ج 1 ص 444) .

وابرز طبيب عربى ظهر فى الاندلس فى القرن الرابع هو ابو القاسم خلف بن عباس الزهراوى صاحب كتاب « التعريف لمن عجز عن التاليف » وقد قال فيه احد الجراحين الغربيين « لا شك ان الزهراوى اعظم طبيب فى الجراحة العربية وقد اعتمده واستند الى بحوثه جميع مؤلفى الجراحة فى القرون الوسطى . وكتابه هو اللبنة الاولى فى هذا الفن وهو اول من ربط الشرايين ووصف عملية تفتيت حصاة المثانة واستخرجها بعملية جراحية وعالج الشلل واول من استعمل خيوط الحرير فى العمليات الجراحية » .

وذكر (لوكلير) (3) من جهته ان الزهراوى

اعظم ممثل لعلم الجراحة فى المدرسة العربية (ج 1 ص 334) .

لما فى المغرب الاقصى فمن الصعب تاكيد ابان ابتداء الازدهار الا ان الدكتور لوكلير اكد ان الطب ازدهر فى هذه الربوع خلال القرن العاشر الميلادى (الرابع الهجرى) ازدهارا عابرا مع الاسف (ج 1 ص 334) .

ثم تحدث فى موضع آخر عن اطباء المغرب فلاحظ ان المغرب هو اشد اقطار الاسلام عمقا من الناحية العلمية (ج 1 ص 407) .

ومع ذلك فقد كان فى المغارب الثلاثة اطباء مهرة فى هذا العصر يدل على ذلك ما رواه القفطى من ان (المعز الفاطمى) قد رافقه الى مصر اطباء من ارض المغرب (اخبار العلماء باخبار الحكماء ص 75) .

وقد اشتهر (قسطنطين التونسى) فى القرن الرابع كطبيب ترجم عشرات الكتب الى اللاتينية .

وقد عرف البرابر منذ عهود سحيقة حقن جراثيم الجدرى وكانوا يستعملونها لتحصين المصاب (كودار — وصف المغرب وتاريخه ج 1 ص 239) .

ونقل الكانونى فى « شهيرات المغرب » (مخطوط) عن كتاب « فن الاسنان بالمغرب الاقصى » انه كان بفاس فى القرن الرابع الهجرى مدرسة طبية وذلك ايام كان المغرب تحت نفوذ الامويين .

والواقع ان الطب لم يزدهر حقيقة بالمغرب الاقصى الا منذ القرن الخامس فكان القرنان الخامس والسادس الهجريان ابرز العصور العلمية فى الاندلس المسلمة رغم الاضطراب الذى تمخض عن تدخل المرابطين ثم الموحدين وذلك بفضل العناية التى اولاها هؤلاء الخلفاء للعلم والعلماء اذ يمكن القول — والدكتور لوكلير يؤكد هذا (ج 2 ص 72) — بان الفكر لم يسبق له ان تحرر كما وقع فى هذا العصر وشهد بذلك نبوغ امثال ابن طفيل وابن باجة وابن رشد (الذى هو اعظم فيلسوف انجبته الاندلس) وبنى زهر الذين توارثوا الطب طوال ثلاثة قرون واعظمهم هو ابو مروان عبد الملك الذى يعتبره بعض المؤرخين اكبر طبيب تخرج من المدرسة العربية يضاف الى هؤلاء الغافقى وابو الصلت امية ابن عبد العزيز الدانى اللذان الفا فى تاريخ الطب الطبيعى .

والغافقى هذا هو ابو جعفر احمد بن محمد وهو غير محمد بن قسوم الغافقى صاحب المرشد فى طب العيون ويوجد كتاب الاعشاب للغافقى فى دار الآثار العربية وهو يحتوى على 380 رسما ملونا لنباتات وعقاقير وحيوانات متقنة الرسم .

زد على هؤلاء الشريف الادريسى السبتى وقد جاء فى رسائل البشرى انه اشتهر فى فنون الهيئة والجغرافية والفلسفة والطب والنجوم وقرض الشعر وطاف بمصر وآسيا الصغرى والقسطنطينية والاندلس ومرنسا وانجلترا ووصف نباتات كل قطر (الاعلام ج 3 ص 34) .

وبفضل الانبعاث العربى فى الاندلس صارت اوربا تنفض عنها اردية الركود واصبح المسيحيون يتوافدون على طليطلة للارتشاف من معين العلم وقد استنجد ريموند اسقف المدينة بعلماء العرب لعلاج الفقر اللاتينى واذ ذاك بدات ترجمة مصنفات العرب العلمية ثم ورد جيرار دوكريمون على طليطلة حيث استقر نحوا من نصف قرن نقل خلاله من العربية الى اللاتينية ستة وسبعين كتابا عربيا او اغريقيا معربا

فى العهد الذى كانت الاندلس خاضعة لسلطان مراكش تكونت — كما يقول (لوكلير) فى كتابه حول الطب عند العرب (ج 2 ص 240) — جماعة من الاطباء التفت حول ملوك المرابطين والموحدين وسار معظمهم فى ركاب هؤلاء الملوك الى المغرب حيث قضوا بقية حياتهم فى العلاج وتدريس الطب — فافاد المغرب كثيرا من نكبة الاندلس .

وقد اكد الدكتور (رينو) ان المغرب لم يقم على وجه العموم بدور يذكر فى العصر الذى كان الطب وبقية العلوم يتالق نورها فى سوريا والعراق ومصر وحتى فى اسبانيا المجاورة ولكن منذ اواخر القرن الحادى عشر وخاصة الثانى عشر الميلاديين ابرز عصور اسبانيا المسلمة امتزج تاريخ الاندلس بتاريخ المغرب تحت راية المرابطين والموحدين ثم يقول (رينو):

« فكيف اذن يمكن ان نفصل بين دراسة الطب بالمغرب ودراسة حياة العلماء الذين انجبتهم الاندلس او الذين تكونوا فى مدارسها ثم ساروا فى اعقاب ملوك المغرب من اشبيلية او قرطبة الى فاس او مراكش او اغمات فللمغرب الحق اذن ان يتبنى ابن باجة وابن طفيل وابن رشد الخ (الطب القديم بالمغرب نشرة معهد الدروس العليا عدد 1 ص 72) .

فابو الوليد بن رشد الحفيد هو صاحب كتاب الكليات كان مكينا عند المنصور ثم الناصر وقد نقم المنصور عليه واجبره على المقام فى اليسانة قرب قرطبة وكانت اولا لليهود كما نقم على ابى جعفر الذهبى

ومحمد بن ابراهيم قاضي بجاية والكفيف لاشتغالهم بالحكمة ثم رضي عنهم عام 595 هـ وجعل ابا جعفر الذهبي مزوارا للطلبة ومزوارا للاطباء .

وفي نفس السنة توفي ابو الوليد بمراكش وخلف ولدا عالما بالطب اسمه عبد الله (وهو طبيب الناصر) وقد شرح ابن رشد ارجوزة ابن سينا في الطب .

ولعل الحكمة كانت تشمل في هذا العصر جميع شعب الفلسفة والعلوم الا ان ابن القاضي اكد بعد ذلك ان الحكيم هو عبارة عن الناظر في العيون لا في الابدان لان هذا هو الطبيب (ذرة الحجال ص 117).

ولابن رشد تلخيص كتاب العلل والاعراض والتصرف والحميات والادوية المفردة وحيلة البرء .

وكان اكثر تلاميذته — على ما يقال — من اليهود والنصارى وقل من كان يقرأ عليه من المسلمين لرميه بضعف المعتقد .

وقد اقترح ابن رشد في شرحه لابن سينا ما يصفه الاطباء اليوم وهو تبديل الهواء في الامراض الرئوية وقد اشار الى جزيرة العرب وبلاد النوبة كمراكز شتوية (حضارة العرب جوستاف لوبون ص 531 من الطبعة الفرنسية) .

وابن رشد هو اول (4) من اشار الى الدورة الدموية وعللها في كتابه الكليات الذي استمد منه ويليام هارفي معظم نظرياته(5).

ويظهر ان ابا العلاء زهر بن زهر هو اول طبيب اندلسي ورد على المغرب بعد استيلاء المرابطين على الاندلس وقد كان طبيبا خاصا ليوسف بن تاشفين بعد ان كان طبيب المعتمد بن عباد باشبيلية .

وقد ذكر (المراكشي في المعجب) ان المعتمد استدعى ابا العلاء لمعالجة (الرميكية) عندما كان اسيرا باغمات .

ووالد ابي العلاء هو ابو مروان عبد الملك بن ابي بكر محمد بن مروان بن زهر الذي تولى رياسة الطب ببغداد ثم بمصر ثم بالقيروان (النفح ج 1 ص 445) .

وكانت له آراء شاذة في الطب منها منعه من الحمام اعتقادا منه بانه يعفن الاجسام ويفسد تركيب الابزجة (عيون الانباء في طبقات الاطباء لابن ابي اصيبعة ج 2 ص 64 — 66) .

وقد تمخضت تجارب ابي العلاء في المغرب عن تاليفه لكتاب « التذكرة » (الذي ترجمه وطبعه كولان عام 1911 بباريس) وهو مجموعة من الملاحظات سجلها لولده ابن زهر لتعريفه بالادواء الغالبة في مراكش والادوية المناسبة .

وبعدما توفي ابو العلاء امر علي بن يوسف بجمع ملاحظات طبية اخرى كان ابو العلاء سجلها في اوراق وهي « المجربات » التي جمعت بمراكش عام 526 هـ والتي يوجد مخطوط منها في الاسكوريال (رقم 844).

وقد ترجم (جان دوكابو) التذكرة من العبرانية الى اللاتينية (نسخة في مكتبة كلية الطب بباريس) ثم توالت التراجم عام 1280 م والمطبوعات (عشر مرات بين 1490 و 1554) .

وتوجد الآن نسخة في مكتبة مدرسة اللغات الشرقية بباريس يرجع تاريخ طبعها الى 1531 م وهي تحتوي ايضا على (كليات ابن رشد) .

وهنالك رسالة في امراض الكلى كتبها ابو العلاء لعلي بن يوسف ولا توجد سوى ترجمتها باللاتينية المنشورة عام 1497 كما يوجد مخطوط له حول (الخواص) بمكتبة باريس ومنه استقى ابن البيطار خواص لحوم الحيوانات .

ولابي العلاء مقالة في شرح رسالة يعقوب بن اسحق الكندي حول (تركيب الادوية) .

وتوجد نسخة من « جامع اسرار الطب » لابي العلاء في المكتبة الوطنية بالرباط وهي تحتوي على 185 ورقة .

وولده هو ابو مروان عبد الملك بن زهر خدم المرابطين مثل ابيه والف كتاب (الاقتصاد) لابراهيم بن يوسف اخي علي (يوجد منه مخطوط بباريس رقم 2959) وكذلك نسخة في الاسكوريال حسب (رينو) محررة بالعربية ومكتوبة بحروف عبرانية وفرغ من الكتاب عام 515 هـ وهو — كما يقول المؤلف — عبارة عن تذكرة لمن سبق له ان قرأ كتبا اخرى في الطب فالمؤلف لا يتكلم مع العموم ولكن مع طبيب مثله وقد اوضح بكيفية عملية الفرق بين الجذام والبهق ومسألة العدوى بل افرد لذلك رسالة لم تصلنا ويذكرون ان ابن زهر هذا اعظم من ابن سينا ولا يعدله سوى (الرازي) في الشرق .

وقد تحدث ابن زهر في هذا الكتاب عن اطباء عصره فذكر انهم يختلفون في الاعتناء بالمرضى وان الناس يجهلون الطب لان الطبيب الذي يستشيره مريض من المرضى يبادر فيصف له دواء من الادوية دون تمحيص للحالة في جميع خواصها ثم ذكر انه استدعي يوما من الايام لدى امير مرابطي فوجد

جماعة من الاطباء شبابا وشيوخا لم يسبق له ان تذاكر معهم ولكنه تاثر بتجربتهم فجرت المذاكرة حول الداء الذى يشكو منه الامير فبادر الاطباء الحاضرون ووصف كل منهم دواء فلم يوفق فى نظر ابن زهر سوى واحد منهم ومع ذلك لم يستكنه سبب الداء ومما امتاز به وخالف فيه أطباء عصره الاقدمين انه كان يستعمل الفصد للشيوخ من سبعين سنة فاقل وللاطفال كذلك حيث فصد ابنه من ثلاث سنوات فادهش معاصريه وكان والده ابو العلاء يوصى ببطيخ فلسطين اى الدلاح فى عرف المغاربة فى امراض الكبد ويعالج بجس النبض والنظر الى قوارير البول .

وقد قرأ ابو الحكم ابن غلند والاشبيلى الشاعر على ابى مروان ابن زهر عام 535 هـ كتاب الاقتصاد فى سجن مراكش حيث مكث ابن زهر نحو العشر سنين.

والمنصور الموحدى هو الذى استقدمه للمرة الثانية الى مراكش عام 580 هـ وحيث مات فى السنة التالية .

وقد سبق لعبد المومن ان اختصه لنفسه وعول عليه فى الطب وله الف (الترياق السبعينى) وانبت كرمة عنب كان يسقيها من ماء مسهل لكراهية عبد المومن لشرب المسهلات فصار يعطيه من ثمارها وقد الف له كذلك (كتاب الاغذية) (ابن ابى اصيبعة ج 2 ص 66) .

وكتاب (التيسير) قد كتبه ابو مروان بن زهر بطلب من ابن رشد كتذييل لكتابه (الكليات) وقد ذكر ابن زهر فى آخر كتابه ان الشخص الذى كلف بمراقبته فى التاليف لم يرقه الكتاب لانه يخالف التعليمات الصادرة اليه ولان فهمه يعسر على من ليس عنده مسكة من الطب لذلك الحق ابن زهر « الجامع » بآخر الكتاب فهل عبد المومن هو الذى امره بتصنيفه ؟ ويظهر من تحليل (لوكلير) لكليات ابن رشد المترجمة الى اللاتينية ان ابن رشد ينقل عن (تيسير) ابن زهر .

وقد اكد ابن عبد الملك فى (الذيل والتكملة) ان ابن رشد كان يفضل ابن زهر على غيره من اهل عصره .

وتعرض ابن سعيد فى الرسالة التى ذيل بها رسالة ابن حزم فى فضل علماء الاندلس ـ لعبد الملك بن ابى العلاء بن زهر فذكر ان (كتاب التيسير) مشهور بايدى الناس بالمغرب وقد سار ايضا فى المشرق لنبله (النفح ج 2 ص 778) .

وتوجد بالمكتبة الوطنية بباريس مجموعة (تحت عدد 2960) تحتوى على (كتابى الاغذية والتيسير) لابن زهر « والتذكرة » لابى العلاء ورسالة فى الادوية .

وقد نهج ابن زهر فى (كتاب التيسير) اسلوبا جديدا فى (الحكمة القياسية) مستخدما التمحيص العقلى للوصول الى احسن النتائج فهو طبيب التجربة والتمحيص العلمى وليس من صناع اليد كما يقول فى « التيسير » اما فى الميدان العملى فقد لاحظ ابن زهر انه يانف من اجراء العمليات الجراحية الكبرى بنفسه لان رؤية الجروح تثير فى نفسه ضعفا يوشك ان يسفر عن اغماء ولكنه لا يكره تحضير الادوية غير مستعمل الخمر فى تركيبها على سنن والده ابى العلاء حتى ولو اوصى بذلك (جالينوس) على خلاف (الرازى) .

وتحدث عن الاعمال اليدوية فى الطب فلاحظ انها موكولة لاعوان الطبيب مثل الفصد والكى وفتح الشرايين اما مهمة الطبيب فهى تقرير نظام الاكل عند المريض ووصف الادوية له فهو لا يتناول شيئا بيده ولا يركب دواء وحكى ان والده لم يباشر شيئا من هذا القبيل بيده طوال حياته وحتى لو اراد ذلك لما وفق لعدم الاستيناس وتحدث عبد الملك عن نفسه فذكر انه كان هو نفسه ولوعا بالمباشرة اليدوية فى الصيدلة وتجربة الادوية والتوصل الى قيمها وتركيباتها.

ولعل ابا مروان توصل بفضل قياساته الطبية وتجربته الشخصية الى الكشف عن امراض جديدة لم تدرس قبله فقد اهتم بالامراض الرئوية واجريت له عملية القصبة المؤدية الى الرئة وتمكن هو بعد ذلك من تشريح القصبة فى مرض الذبحة فعولج المريض .

وقد اختص ابن زهر فى امراض (الجهاز الهضمى) واستعمل انبوبة مجوفة من القصدير لتغذية المصابين بعسر البلع واستعمل الحقن المغذية واكتشف (طفيلية الجرب) وسماها صؤابة الجرب كما بسط طرق العلاج القديمة واوضح ان الطبيعة ـ اذا اعتبرناها قوة داخلية تدبر شأن الجهاز البشرى ـ تكفى وحدها فى الغالب لعلاج الادواء (حضارة العرب جوستاف لوبون ص 530 من الطبعة الفرنسية) .

وكان ابو مروان اذا عالج مريضا نسى نفسه واستهلك فى مريضه وهذا هو سر عبقريته فاذا عرضت عليه حالة شائكة حاول ان يعيشها واستمد من ذكرياته وتجاربه ومنطقه ولهذا كان نسيج وحده وانكب أطباء القرون الوسطى على دراسة كتابه (التيسير) الذى ترجم اولا عن العبرانية من طرف شخص مجهول

(مخطوط بمكتبة ليد) ثم الى الايطالية عام 1260م .

وقد تحدث ابن زهر فى كتاب (التيسير) عن (يمين ابقراط) الذى كان يطالب بها جميع من يدرس مصنفاته ويقتضى منهم الزام تلاميذهم بها وقد ذكر ابن زهر ان والده ابا العلاء تلقى اليمين منه عندما كان لا يزال طفلا لدى ابتدائه دراسة الطب وحكى ان احد الثوار طلب منه سما فابى معرضا نفسه للخطر ثم سقط هذا الثائر مريضا وبدلا من ان يقضى الطبيب عليه عالجه باخلاص طبقا لمبادىء (ابقراط).

وقد وهم (كودار) فزعم فى كتابه حول (تاريخ المغرب) (ص 452) ان ابا مروان ابن زهر يهودى ثم اكد ان ابن زهر استعاض بالمنهج التجريبى والطريقة العقلية عن التقليد فى ممارسة فن الطب وكانت له عبقرية نفذ تطورت بفضلها شعب ثلاث حاول توحيدها وهى الصيدلية والجراحة والطب العام .

والحفيد ابو بكر بن ابى مروان كان طبيبا شاعرا متين الدين خدم الدولتين اللمتونية والموحدية (عبد المومن ويوسف ويعقوب والناصر) توفى عام 596 هـ بمراكش الف (الترياق الخمسينى) ليعقوب المنصور ودس اليه ابن يوجان وزير المنصور السم هو وابنة اخته وكانت هى وامها عالمتين بالطب لا سيما فى امراض النساء وتدخلان الى نساء المنصور (ابن ابى اصيبعة ص 67) وكان ابو بكر يحفظ صحيح البخارى باسانيده (الانيس المطرب ج 2 ص 180) ولم يكن فى زمانه اعلم منه باللغة وكان يحفظ شعر (ذى الرمة) وهو تلث لغة العرب (المطرب لابن دحية) .

وولده عبد الله بن الحفيد خدم الناصر بن المنصور وكان عالما باسرار الصناعة وتوفى مسموما فى رباط الفتح عام 602 هـ ودفن بها وهو ابن 25 سنة (ابن ابى اصيبعة ص 74) .

وقد امتد العهد المرينى والوطاسى حوالى ثلاثة قرون (من 637 هـ الى عام 961 هـ) تقلب المغرب خلالها فى شتى التطورات من الازدهار الى الانهيار وقد اعتلى بنو مرين اريكة العرش فى السنة التى انتهت فيها المجاعة الكبرى التى استمرت من 619 هـ الى 637 هـ ومع ذلك فهذا المنصور المرينى كان — كما يقول طبراس — اقوى ملك فى المغرب الاسلامى (تاريخ المغرب ج 2 ص 28) بينما امتد نفوذ ابى الحسن من (تشتالة) الى السودان ومصر (ج 2 ص 61) .

وكان الطلبة ايام ابى عنان « اعز الناس واكثرهم عددا واوسعهم رزقا » (النيل ص 260) .

وابو يوسف المرينى هو الذى صنع المارستانات فى جنوب المغرب للغرباء والمجانين واجرى عليها النفقات وجميع ما يحتاجون اليه من الاغذية وما يشتهونه من الفواكه وامر الاطباء بتفقد احوالهم فى امورهم ومداواتهم وما يصلح احوالهم (الذخيرة السنية ص 100) ولم تكد تخلو مدينة من مارستان حتى ذكر (مارمول) ان (شالة) نفسها كان بها مستشفى (وصف افريقيا باريس 1667 — ج 2 ص 24) .

على ان الطب كان فى افريقية — كما كان فى المغرب — مشاعا بين طبقة وافرة من الفقهاء والمحدثين والادباء . فهذا مثلا الامام السنوسى شارح البخارى له شرح على رجز ابن سينا فى الطب وله شرح كبير على الحوفية فى الفرائض والحساب الفه وهو ابن تسعة عشر عاما (النيل ص 353) .

وفى خصوص فاس ذكر على بن ميمون فى تاليف له استطرد فيه الكلام على فاس انه ما راى مثلها ومثل علمائها فى حفظ نصوص كل علم مثل النحو والفرائض والحساب والمنطق والتوحيد والبيان والطب وسائر العلوم العقلية . ما راى مثلها ومثل علمائها فيما ذكر فى المغرب وتلمسان وبجاية وتونس والشام والحجاز ومصر راى ذاك كله بالمشاهدة (سلوة الانفاس ج 1 ص 74) .

غير ان ابن خلدون اكد انه لم يشاهد فى المائة الثامنة من سلك طريق النظار بفاس لاجل انقطاع ملكة التعليم عنهم (نشر المثانى ج 2 ص 97) .

ولكن حوالى 620 هـ اى بعد مرور بضع سنوات على ظهور المرينيين (عام 613 هـ) تحدث المراكشى صاحب المعجب عن فاس فذكر انها حاضرة المغرب وموضع العلم منه اجتمع فيها عام القيروان وعلم قرطبة حيث رحل علماء المدينتين ونزل اكثرهم بفاس « وما زلت اسمع المشائخ يدعونها بغداد المغرب » (ص 220) (4) .

وذكر لوكلير انه منذ اندراس اعلام التدريس فى قرطبة والقيروان لم يكن لفاس ولا لباقى مدن المغرب اى نظام مقبول فى التعليم (ج 1 ص 575).

وقد اكد رينو ان علم الطب كان يدرس فى جامعة القرويين بواسطة كتب ابقراط وجالينوس وديجينوس المعربة الا ان كتب خزانة القرويين اندرس بعضها على يد الاسبان عام 1161 م ولم تعد تدرس العلوم

والطب رسميا اللهم الا ما كان من دروس يلقيها (اطباء) فى جوامع العاصمة او بعض زوايا المدن الاخرى (5) حيث يطلقون على المصنفات العربية المخطوطة او المطبوعة الموجودة فى الطب بالمغرب محافظين بذلك على ما يعرفونه من الطب التطبيقى .

وقد تأزمت الحالة فى المغرب كذلك بعد نكبة ابى الحسن فى افريقية وطريف بالاندلس وتوالى الازمات الاقتصادية والاوبئة التى جرفت بالعالم اجمع فى ذلك العصر وكابد المغاربة من جرائها المرائر فانتشر الفقر والمرض وانتكس العمران وهلك العلماء وكادت تندرس معالم العرفان . نعم « فى آخر القرن الثامن تبدلت — كما يقول الناصرى — احوال المغرب بل واحوال المشرق ونسخ الكثير من عوائد الناس ومالوفاتهم وازيائهم » وذلك — حسب ابن خلدون — نظرا لما « نزل بالعمران شرقا وغربا فى منتصف المائة الثامنة من الطاعون الجارف الذى تحيف الامم وذهب باهل الجيل وطوى كثيرا من محاسن العمران ومحاها وجاء للدول على حين هرمها وبلوغ الغاية من مداها فتلص من ظلالها ونل من حدها واوهن من سلطانها وتداعت الى التلاشى والاضمحلال احوالها وانتقص عمران الارض بانتقاص البشر فخربت الامطار المصانع ودرست السبل والمعالم وخلت الديار والمنازل وضعفت الدول والقبائل وتبدل الساكن وكانى بالمشرق قد نزل به مثل ما نزل بالمغرب لكن على نسبته ومقدار عمرانه » (الاستقصا ج 3 ص 144) .

« ودراسة عصر ابن الخطيب مفيدة — كما يقول رينو — للطبيب لانها عصر الطاعون الاسود الاكبر الذى هلك فيه حسب المؤرخين ثلث سكان المعمورة وقد صنف بعض الاطباء المغاربة مؤلفات فى علل هذا الداء وطرق علاجه » (الطب القديم بالمغرب ص 47) .

وقد ادى هذا الاضطراب الى سقوط المراكز المهمة فى المغرب تدريجيا فى قبضة البرتغال الذى استمر احتلاله لها اكثر من ثلاثة قرون فكان ذلك رد فعل لثلاثة القرون التى استمرت الاندلس خاضعة طوائفها للمغرب

وفى الشرق بدا عصر الانحطاط العلمى فى القرن الثامن وبداية التاسع على اثر السيول الجارفة التى حطمت فى طريقها معالم المدنية تحت امرة جنكيز خان وتيمورلنك واذا كان ابن بطوطة قد تحدث لنا عن المدرسة النظامية التى كانت ما زالت قائمة البنيان فان اساتذتها وطلبتها اندرسوا وقد لاحظ لوكلير انه امكن فى هذه الفترة تسجيل نحو الاربعين عالما نصفهم من الاندلس لا يوجد من بينهم طبيب مشهور » لقلة الطرافة والاكتفاء بالجمع والتاليف (ج 2 ص 258) .

واكد رينو فى كتابه « الطب القديم بالمغرب » انه بعد عصر بنى مرين سادت فى المغرب الفوضى فافل نجم فاس ابان السعديين ولم يذكر اى طبيب مغربى فى المصنفات الكلاسيكية خلال هذه الحقبة من تاريخ المغرب الى آخر القرن الثامن عشر حيث لوحظ اسم مصنف « ذهاب الكسوف » الطبيب محمد بن عزوز المراكشى الذى اقتبس فصل طب العيون من الكحال المشرقى على بن عيسى » (الطب القديم بالمغرب ص 75) .

ولكن رينو هذا عاد فاكد فى الخطاب الذى القاه فى المؤتمر الدولى الخامس لتاريخ الطب (طبعة جنيف 1926 ص 3) الفوضى التى اقحمته فيها حروب آخر ملوك بنى مرين فاعاد ملوك الشرفاء تدريجيا وحدة البلاد وقد تحدث ليفى بروفنصال فى كتابه « مؤرخو الشرفاء » عن نهضة المغرب من الوجهة الادبية فمن الغريب ان لا نجد مثل هذه النهضة فى العلوم الطبية » .

ومن نبغ من الاطباء فى هذا العصر عبد الرحمن تيقين القصرى ثم الفاسى المحدث كان مشاركا فى الادب والتصوف والطب يقرىء الفية ابن سينا توفى عام 956 هـ (النيل ص 153) وكذلك ابو القاسم الوزير الغسانى له فى الطب موضوعات وشرح على حميات ابن عزرون وكتاب فى الاعشاب (الدرة 466) .

ورغم ما استظهره رينو من ان التعليم الرسمى للطب والعلوم اندرس بجامعة القرويين اواخر القرن الماضى (الطب القديم بالمغرب ص 77) فان دلفان اشار فى كتابه جول فاس وجامعتها (المطبوع عام 1889) الى اعتناء الطلبة بجملة من الكتب الطبية مثل الكامل للرازى والقانون والمنظومة لابن سينا وزبدة الطب للجرجانى والتذكرة السويدى وتذكرة الانطاكى وكليات ابن رشد ومفردات ابن البيطار وكشف الرموز للجزائرى .

وذكر رينو ان بعض الاطباء المغاربة كانوا متخصصين بعضهم فى الاوجاع وبعضهم فى امراض العيون وبعضهم فى الحميات اما اطباء الاسنان فانهم يمارسون هذا الفن — فى نظر رينو — بمهارة كبرى (ص 122)

وكان الجدرى يظهر كل سبع سنوات تقريبا ويعمد بعض الناس الى التلقيح ضد الجدرى بحقن جراثيم بثور ودماميل العجل او الناقة بينما يستعمل آخرون الكبريت والملح ويخلدون الى الراحة فى مكان مظلم .

وقد ظهر اطباء منهم فى القرن الماضى مولاي عبد السلام العلمى الذى درس الطب بالقاهرة وله كتاب سماه (ضياء النبراس) اورد فيه اسماء اساتذته المسلمين والاجانب فى الاسبطالية الكبرى بالقصر العينى الذى اسسه عام 1827 الدكتور كلوط (كلوط باى) بأمر من الخديوى محمد على (خطاب رينو ص 6) وقد ذكر الطبيب المغربى فى كتابه النبراس انه عندما كان طالبا فى مصر عام 1291 هـ (الضياء ص 59) فكر فى تأليف كتاب موسوم بالاسرار المحكمة فى حل رموز الكتب المترجمة لتفسير المصطلحات الفنية فى العلوم العصرية الدخيلة فى العربية وانه اقتصر موقتا على تصنيف مختصر لشرح تذكرة داود الانطاكى وهو « ضياء النبراس فى حل مفردات الانطاكى بلغة فاس » وقد طبع بفاس عام 1318 هـ . وعلق رينو على هذا الكتاب فلاحظ ان المؤلف يعطينا مفردات بربرية مرادفة للمصطلحات الطبية العربية

وهذا الكتاب متين التحليل ويعتبر فى نظرى نقطة تحول مهمة فى تاريخ الطب المغربى حيث يحاول المؤلف التوفيق بين الشهور والبروج والادوية وانواع النباتات المتداولة فى الشرق والغرب وفى المغرب مصححا فى بعض الاحيان اغلاط سلفه ومنظرا بين المصادر المطبوعة ودروسه فى مصر وتقاليد اطباء المغرب وصيادلته وما يسميه بالطب الجديد والكيمياء الجديدة باوربا وامريكا وياتى احيانا باسماء الدواء بالعربية ومختلف لهجاتها ثم باللاتينية والافرنجية مع تحليل ذلك بالمصطلحات الحديثة العامة كالتصعيد والتقطير وقد نقل من مصر نماذج عديدة من النباتات والعقاقير والأدوية ويحكى عن تجارب شيوخه فى قصر العينى واسهامه الشخصى فى هذه التجارب وقد ذكر انه شاهد زرافة مصيرة بالقصر العينى خلال قراءته علم الحيوانات (الضياء ص 57) وشارك فى تحضيرات بالمعمل الكيماوى بمصر (ص 72) .

وقد اشار رينو الى اجتماع عقده اربعة من علماء فاس فى 8 شوال 1310 هـ لامتحان طبيب مغربى فشهدوا بعد استفساره بتضلعه فى الطب وقوانينه وتطبيقاته ومعرفته بتركيب الادوية وتقاسيم الشرايين ووظائفها وعددها وعدد العظام وتمييزه بين انواع العصب والعضلات فى الجسم ومعرفة النباتات والازهار والاعشاب الطبية وخواصها واسمائها وطرق اذابتها فى الوقت الصالح والاوقات المناسبة لوصفها للمرضى وبعد المداولة بين العلماء خولوا للطبيب اجازة (ص 121) .

وهكذا يتجلى لنا من هذا العرض الموجز ان المغرب اسهم بحظ وافر فى وضع اسس فن الطب ايام المرابطين والموحدين غير ان هذا الفن وكذلك غيره من التعاليم والعلوم والفلسفة بدا يتقلص فى عهد المرينيين ثم الشرفاء بسبب الاضطرابات والازمات المتوالية وبالاخص من جراء الذبول الذى لحق معالم الحضارة العربية عموما والمغربية خصوصا ولكن هذا لا ينقص من قيمة التراث المغربى الثمين الذى يعد لبنة اساسية فى مقومات الحضارة الانسانية .

***

هوامش البحث :

(*) محاضرة القيت فى المؤتمر الاول للطب الاسلامى الذى انعقد بالكويت .

(1) — توجد فى اسطامبول نسختان من كتاب الحشائش لديسقوريدس رسمت فى اولهما صورة المؤلف اليونانى وقد اشار بوشنال وكورز الى نسخة من هذا التبيل انتسخت فى بغداد عام 637 باط كما يوجد فى نفس المكتبة مختصر كتاب الاعتماد فى الادوية المفردة

(2) — يوجد الجزء الاول من هذا المخطوط فى المكتبة الوطنية بالرم ميلانج (مختلط) لوى ماسينيون ج 2 ص 93 . لابن الجزار مرتبا على الحروف وصاحب المختصر غير مذكور .

(3) تاريخ طب العرب (مجلدان — طبعة بيروت) — طبعة ثانية لوزارة الاوقاف المغربية بالتصوير (1400 هـ) (1980 م) .

(4) ابن النفيس المصرى اكتشف الدورة الدموية الصغرى وهى الدورة الرئوية قبل الغربيين بثلاثة قرون (نشرة المعهد المصرى ج 26 عام 1934 — بحث بقلم ماكس مايرهوف ص 33) وقد أشار ابن النفيس الى ذلك فى « الكتاب الشامل فى الطب .. الذى كان يحتوى على 300 مجلد وقد أهدى مؤلفه منه 80 مجلدا لمستشفى قلاوون .

(5) أكد ليفى بروفنصال « انه بفضل ملوك بنى مرين لم تكن عاصمة فاس فى القرن الرابع عشر الميلادى لتحسد العواصم الاسلامية الاخرى » (هسبريس عام 1952 ص 3) .
وقد اعتبرت فاس من طرف باديا ليلبيش المعروف بعلى بأى العباسى بمثابة اثينة افريقيا ومعلوم أن اثنية هى عاصمة الفكر اليونانى كما دلفان فى كتابه عن الفرويين جامعة فاس بانها أول مدرسة فى الدنيا (ص 12) .
وذكر الدكتور رينو ان مدينة « فاس مهد الحضارة التى تجلب العلماء والطلبة من العالم اجمع وهى كعاصمة اثنية بالنسبة للاسلام حيث كانت تدرس جميع العلوم والفنون والآداب » (الطب القديم بالمغرب ص 77) .
وتحدث دوكامبو عن جامعة القرويين فلاحظ « انها كانت فى العصور الوسطى ملتقى الاجانب من مختلف الجنسيات والاديان » (المغرب المعاصر مملكة تنهار باريس 1886 ص 12) .
وقد أشار (كابريال شارمس) فى كتابه « تذكارة الى المغرب » (ص 254) الى عصر المجد الذى كان المغرب فيه ملتقى جميع العلوم وجميع الفنون التى تنتشر من هنالك فى أوربا ، ثم ذكر مدينة فاس التى يرى معظم مسلمى افريقيا انها أعظم مدينة مقدسة بعد مكة نظرا لاصلها وللدور الذى قامت به فى تاريخ الاسلام فقد كانت فاس مركز القوة العربية عندما كان نورها يتألف وحتى عندما أصبحت مراكش عاصمة المغرب السياسية كانت فاس بفضل معاهدها الشهيرة ومساجدها عاصمة الغرب الاسلامى فكريا وأدبيا بل أن مدارسها ككانت طوال مدة مديدة أولى مدارس العالم « (ص 297) وهنا فى هذه المدينة » انبثق ما يسمى بالحضارة الغربية التى اشع نورها فى اسبانيا فاضاء جوانب أوربا المتوحشة (ص 298) .

(6) — وورد فى الجزء الاول من سلسلة « مدن المغرب وقبائله » المتعلقة بالرباط وناحيته (ص 32 و 225) ان البوعنانية بتلا كانت مدرسة للطب .